دور القصور الصحراوية في التنمية السياحية

للأستاذ : عزوق عبد الكريم
معهد الآثار . جامعة الجزائر

مقدمـــة

إن الحديث عن القصور الصحراوية، يؤدي بنا حتما إلى البحث عن المستوى الحضاري والاجتماعي والثقافي الذي من خلاله نستطيع التعرف عن المستوى العمراني، لأن المثل يقول: «العمارة مرآة الحضارة ومجمع الفنون». ولذلك فإن معرفة مستوى حضارة الإنسان يتوقف على معرفة عمرانه أو تطور مدينته لأن المدينة عنصر من عناصر الحضارة.

وهناك أهمية أخرى والتي من خلالها نتمكن من تتبع مراحل بناء القصر ومكونات المدينة ومورفولوجيتها، ومنه التعرف على مدى قدرة الإنسان الصحراوي على التكيف والتأقلم في منطقة توصف بأنها قاسية ومعزولة، وما هي العوامل التي فرضت عليه الاستقرار فيها؟.

وبالرد عن هذه التساؤلات، نكون قد أدركنا حقيقة وجود الإنسان الصحراوي الجزائري في تلك المنطقة التي كانت منذ القدم سجلا ثريا لحضارة سادت ثم بدأت في التقلص التدريجي والانكماش كتحسر المياه عن الشاطئ، وهذا ما جعل إنسان المنطقة يحاول العودة إلى الأرض الموات لزرع الأمل فيها ووفاء العهد لحضارة بقيت شاهدة على أسس هي الآن مطلب بعض الراغبين إلى إحيائها والتمسك بجذورها(1).

(1) محمد الطيب عقاب، "أهمية القصور التاريخية في الجنوب الغرب الجزائري وسبيل منهجية دراستها"، أعمال الملتقى الثالث للبحث الأثري والدراسات التاريخية، المسيلة، 1995 الجزائر، ص 78.

ولا يمكننا أن نغفل العلاقات الاقتصادية التي كانت سائدة في المنطقة والتي جددت نمط قيام الظاهرة العمرانية في الجنوب الجزائري، وربما أيضا بفعل حدوث أوضاع سياسية أدت ببعض الفئات إلى التمركز في القصر بصفة دائمة أو مؤقتة، وذلك حسب توفر الأوضاع المساعدة لذلك، وأن هذه الحركة تفرض على الدارس أن يحدد وبشكل نسبي بأنها قد استقرت بهذه المنطقة، بعد أن وحدت لنفسها الكائن الجماعي الحي وهو المدينة «القصر».

ونهدف أيضا من وراء دراستنا لقصر ورقلة خاصة، والقصور الصحراوية عامة، إلى الوصول إلى أسس عمران القصر وتطوره، وهذا يتطلب منهجا في الدراسة وذلك بالرجوع إلى مختلف المصادر منها: الوقفية ونصوص العدول والمصادر الشفوية، ثم مراجع الرحالة الأجانب الذين زاروا المنطقة في منتصف القرن 19 م. أما الجانب الميداني، فيعتمد على الجرد والمسح الأثري للقصر، وإجراء بعض المجسات[1]. « Sondages»

إشكالية دراسة القصور الصحراوية:

قد يتعرض الدارس والباحث حول القصور الصحراوية عامة، وقصر ورقلة على وجه الخصوص عدة عراقيل، منها إنعدام المعطيات التاريخية من جهة، وتعرض هذه القصور للإندثار التدريجي سواء البشري أو الطبيعي من جهة أخرى. وأغلب المعلومات عبارة عن روايات شفوية، والملاحظ أن الرحالة والباحثين الأجانب الذين زاروا المنطقة وتعرضوا لوصفها أمثال: Berbrugger, Daumas, Duveyrier, Trumelet, Largeau، فمعلوماتهم جاءت بطريقة غير مفهومة حيث ركزت على الجوانب الاجتماعية والحياة داخل القصر كالعادات والتقاليد دون التطرق لعمارة القصر وعمرانه.

(1) محمد الطيب عقاب، المرجع السابق، ص 79.

الإشكال المطروح:

هل نعتمد في دراستنا على الروايات الشفوية، وإن كان ليس هناك ما يثبت صحتها حيث يغلب عليها الطابع الأسطوري الخيالي أكثر من الواقع.

الإشكال العمراني:

محاولة معرفة بناء القصر، وهل كان في فترة واحدة وتطور مع وفود عناصر أخرى، أم أنه ناتج لتداخل مجموعة من القصور.

الإشكال الوظيفي:

هل هذه القصور بنيت لتكون محطة للقوافل التجارية(Caravansérail) خاصة وأنها تقع على طريق تجاري أنها بنيت لتحمل قبائل من الغارات والحروب؟[1]

الإشكال المعماري:

معظم العناصر المعمارية التي يحتوي عليها القصر شبيهة تلك التي نجدها في العمارة المرابطية، ولذلك هل نأخذ بالروايات الشفوية في تأريخ القصر، أم نلجأ إلى تحليل العناصر التي وجدت نظائرها في العمارة المرابطية، ومنها يبدأ البحث الجدي والدراسة.

مميزات القصور الصحراوية:

لاحظنا خلال زيارتنا لمجموعة من القصور بمنطقة ورقلة أنها تمتاز بما يلـــي:

(1) علي حملاوي ، منهجية البحث حول القصور الصحراوية ، دراسة نموذجية لقصور مدينة الأغواط، أعمال الملتقى الوطني الثالث للدراسات التاريخية المسيلة 1995 ص 84

- موقعها بالقرب من المجاري المائية.
- بنيت فوق مرتفعات أو أماكن منخفضة تحيط بها سلسلة من الجبال ويحيط بها سور تفتح فيه بوابات، شأنها في ذلك شأن المدن الإسلامية الأولى، وهذه الخاصية إحدى الشروط الأساسية في قيام المدينة الإسلامية، وظاهرة عمرانية نجدها في الكثير من المدن الإسلامية المبكرة وحتى في العصور الموالية.(1)
- تمتاز بوحدة المادة وتقنية البناء.
- تمتاز بتخطيط داخلي موحد (نسيج عمراني متشابه).
- الوحدة المناخية فرضت على الإنسان المنطقة التفكير في تفادي الحرارة وتلطيف الجو داخل القصر وتكسير الرياح.

أهمية القصر كتراث معماري:

إن القصور الصحراوية العديدة التي يزخر بها الجنوب الجزائري ،بعضها قد تهدم، والبعض الآخر مهجور، والبعض الآخر في طريق الاندثار التدريجي، سواء البشري أو الطبيعي. ولكن القصور المتبقية لحد الآن تشهد على فن معماري أصيل من كل جوانبه، أنشئ أصلا بمواد محلية، وثقافة وتقنية محلية أيضا تستجيب للخصائص المناخية الموجودة بالمنطقة، وللعادات والتقاليد المتعارف عليها أيضا، والتي جعلت معظم القصور الصحراوية تأخذ مخططا واحدا من حيث نسيجها العمراني الداخلي، كما يلاحظ أيضا تموقع هذه القصور بالقرب من المجاري المائية، وبعضها بني فوق مرتفعات، أو أماكن منخفضة، تحيط بها سلسلة من الجبال، كما يحيط بها سور تفتح فيه بوابات، شأنها في ذلك شأن

(1) لمزيد من المعلومات أنظر: ابن خلدون، العبر، المجلد السابع. وأنظر أيضا: ابن ابي الربيع، (شهاب الدين أحمد بن محمد)، سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال، دراسة وتحقيق: ناجي التكريتي، ط 1، تراث عويدات بيروت - باريس 1978.

المدن الإسلامية الأولى، وهذه الخاصية إحدى الشروط الأساسية في قيام المدينة الإسلامية، وظاهرة عمرانية نجدها في الكثير من المدن الإسلامية المبكرة، وحتى في العصور التالية. وتمتاز أيضا بوحدة المادة وتقنية البناء، كما تتشابه في تخطيطها الداخلي الموحد. كما أن الوحدة المناخية قد فرضت على إنسان المنطقة التفكير في تفادي الحرارة، وتلطيف الجو داخل القصر، وتكسير الرياح.

وعلى هذا الأساس أصبح هذا التراث المعماري جزءا لا يتجزء من أصالتنا وحضارتنا، والمحافظة عليه، وإعادة الاعتبار له أصبح ضرورة ملحة على كل واحد منا، لنقله إلى الأجيال المستقبلية بكل أمانة حتى يتسنى لهم معرفة حضارة أسلافهم، ونمط عمرانهم، وأسلوبهم المعيشي، بالإضافة إلى العادات والتقاليد التي كانت لديهم.

القصر معلما سياحيا :

إن القصور الصحراوية بالجزائر لا تختلف عن تلك المدن القديمة الموجودة في القيروان، وفاس، ومراكش وغيرها، والدور الكبير الذي تؤديه هذه المدن في المجال السياحي، ولذلك فإن هذا ليس بالأمر المستحيل على القصور الصحراوية، ولكن ذلك يتطلب إدخال عدة تعديلات عليها، وتهيئتها بمختلف الهياكل التي يمكنها استقطاب السواح سواء من داخل الوطن أو من خارجه، وإن كانت الإمكانيات المادية لا تسمح بتهيئة كل القصور المنتشرة في الصحراء الجزائرية ولكن الأمر يقتصر على تهيئة أهمها لهذا الغرض، ولذلك لدينا مجموعة من المقترحات لتحقيق هذا الهدف وهي على التوالي:

- خلق ديوان خاص لتسيير القصر من جميع الجوانب يتمتع بالاستقلالية في التسيير، ويسهر على الأمن في الداخل، بخلق لجان تعمل بالتناوب.

- إنشاء مركز للمخطوطات، أو فرع لمكتبة بلدية، ليكون القصر مركز إشعاع علمي أيضا يتوافد عليه الطلبة والباحثين في مختلف المجالات.
- تكييف القصر وفق الإمكانيات الحديثة كإنشاء قاعة للأنترنيت، أو مخادع هاتفية، حتى يتسنى للسائح الاطلاع على بريده الإلكتروني أو الاتصال بذويه عن طريق الهاتف.
- توفير وسائل النقل بين المدينة الحديثة، والقصر (المدينة القديمة).
- خلق اتفاقيات من قبل ديوان القصر، مع المؤسسات التربوية من مدارس وجامعات ومعاهد لتنظيم زيارات منظمة من طرف المختصين، والتنسيق مع الوكالات السياحية لاستقبال أفواج السواح وبرمجة زيارات لهم.

* * *

الخلاصة :

إذا استطعنا تحقيق هذه الاقتراحات، فإنه حتما تكون هناك عدة نتائج إيجابية تعود بالفائدة على الاقتصاد الوطني، وتساهم مساهمة كبيرة في بنائه نذكر فيها:

- المحافظة على الأسلوب المحلي في فن البناء.
- انتعاش السياحة الصحراوية.
- المحافظة على التراث بمختلف جوانبه والعمل على إحيائه.
- امتصاص البطالة، وخلق مناصب شغل (انظر الجدول).
- التقليل من أزمة السكن، ومن النزوح نحو المدن.
- التعريف بالمنتوج الوطني محليا وخارجيا.
- انتعـــاش الصناعات والحرف التقليدية (جلود، زرابي، نحاس، فضة وغيرها).
- تكييف القصر وفق معطيات الحياة العصرية الحديثة، من توفير الماء والكهرباء والهاتف للسكان، وكلها مداخيل لخزينة الدولة.
- توفير فرص العمل لعمال النظافة، وتوفير نقالات، أو أحمرة لتنظيف القصر من الداخل.

وفي الأخير نعتقد بأن المشكلة تكمن في التفكير الجدي، وتجسيد هذه الأفكار ميدانيا، والمرور إلى التطبيق مباشرة بعد دراستها، وخلق سياسة سياحية تسير في هذا الاتجاه.

جدول افتراضي تقريبي لما يمكن أن يوفره القصر الواحد من مناصب شغل

الوظيفة	عدد المناصب
أعوان الأمن –	01
مختص في الآثار	01
مهندس معماري :	01
مدير ديوان القصر	01
الكاتبة	01
مرشد	02
المحاسب	01
كهربائي	01
لحام	01

بناء	01
سباك	01
سائق	03
عمال النظافة	03
طباخين وعمال إطعام	10
عمال مقاهي	06
بيوت إقامة	10
دكاكين	02
تجار أسواق	05
المجموع	60 منصب

العدد: 60 منصب شغل كأقل تقدير في القصر الواحد.

ملاحظة: وإذا سلمنا كأقل تقدير بأن عدد القصور المهيئة لتكون قطبا سياحيا هي 500 قصر يكون عدد مناصب الشغل ما يلي:

500 × 60 = 30.000 منصب شغل في الجنوب الجزائري في مجال السياحة.

منظر عام لقصر عين ماضي بالأغواط.

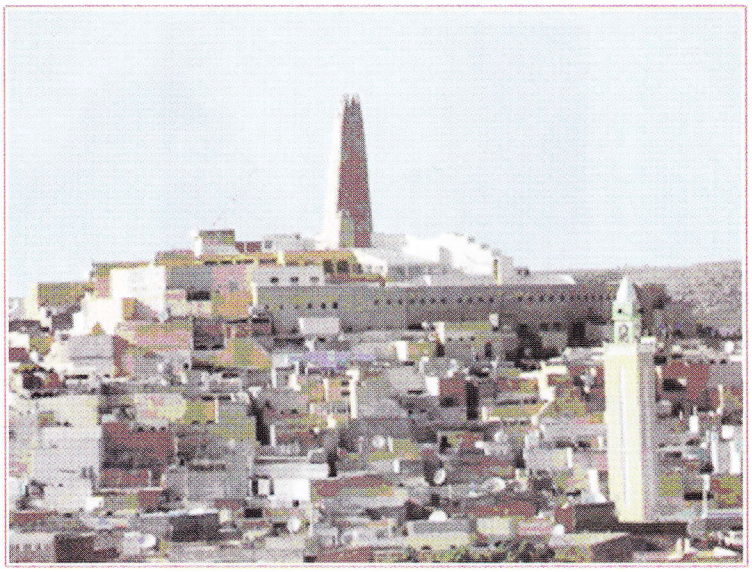

منظر عام لقصر غرداية

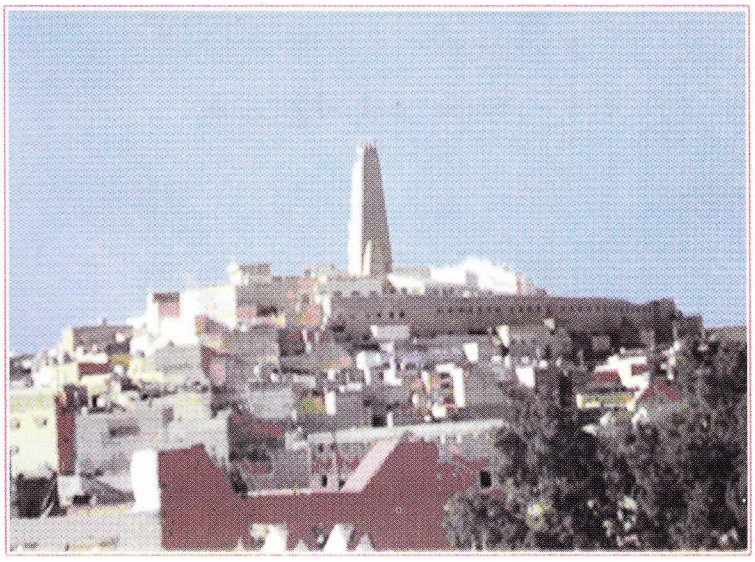

منظر عام لقصر بني يزقن (غرداية).

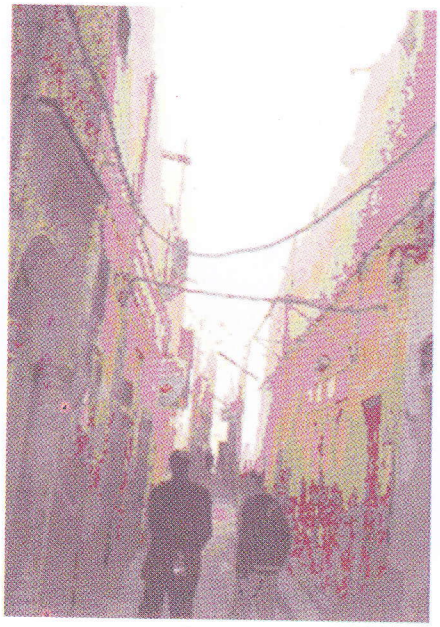

إحدى الأزقة بقصر غرداية.

* * *